

بعد استعراض هذه الصور، سأتناول بالبحث شيئاً شبيهاً بالفخ، وأعني الكلام. يقال إنَّ الكلام يترجم ما يجول في الفكر، وإنَّ العلامات تنبئ بما يحدث في ذهن من يستعملها، أي أنه من خلالها يمكن معرفة ما يدور بخلد. هذا القول ليس صحيحاً، أو ليس صحيحاً في كلِّ المناسبات، لأنَّ الكلام قد يتحول إلى شبكة لاقتناص ضحية، لاقتناص المستمع. فعوض أن تُظهر العلامات ما يدور بخلد المتكلم، فإنها تصير حجاباً يعسر خرقه، أو تصير بمثابة الحَبِّ المنثورِ على شَرَك الصياد. يحدث هذا عندما يكون القصد من الكلام إيقاع المستمع في ورطة، ويحدث هذا بالخصوص عندما يكون المتكلم عاجزاً عن نيل مراده بالقوة فيعمد إلى الحيلة والمراوغة. كل حكاية في كليلة ودمنة مبنية على استعمال الكلام من أجل المكر والخداع.

قد يكون المستمع على علمٍ بالطبيعة الخادعة للكلام فيكون حينئذ على أهبة واستعدادٍ لتلقي الخطاب بكامل الوعي والتحرز، أي أنه يفترض أن مخاطبه يحاول خداعه فلا يتقبل أقواله بدون أن ينتقدها ويفحص الزيف الذي قد تشتمل عليه. من الممكن إرجاع حالات التّخاطب المختلفة إلى أربع حالات :

- المتكلم غير خادع والمخاطب غير منخدع.
- المتكلم خادع والمخاطب منخدع.
- المتكلم خادع والمخاطب غير منخدع.
- المتكلم غير خادع والمخاطب منخدع.

الحالة الأخيرة تبدو بعيدة الاحتمال، لكنها تحدث كما هو الشأن في حكاية الحمامة المطوقة التي سبقت الإشارة إليها. فعندما وقعت الحمامة في الشَّرَك خلصها جَرْدٌ فأبصره غراب ورغب في مصادقته رغم العداوة الموجودة بينهما. لكن الجرد شك في صدق الغراب، لأنه لا يجهل أنه أضعف منه. الغراب موجود فوق شجرة بينما الجرد في جَحْره؛ الغراب هوائي والجرد تحت أرضي. وكون الغراب يوجد فوق والجرد تحت يدلُّ على أنَّ العلاقة التي تجمعهما علاقة القوي بالضعيف،